

## المسرح ودوره في المجتمع

د. يوسف شاهين

( كلية فنون الأداء، جامعة المنارة )

البريد الإلكتروني: yousef.shahen@manara.edu.sy

### الملخص

حضر المسرح في حياة الشعوب على مر العصور، ولكن حضوره لم تكن غايته تقديم المتعة والتسلية فقط للمجتمعات الإنسانية، بل تعدتها إلى أهداف وغايات شملت مختلف نواحي الحياة الإنسانية الثقافية والدينية والاقتصادية وحتى السياسية. يعاني المسرح اليوم معاناة قاسية لأسباب متعددة. لن يعالج هذا البحث أسباب ذلك، ولكنه سيسلط الضوء على نقاط مفصلية وهامة تتمحور حول الدور الذي لعبه ويمكن أن يلعبه المسرح في المجتمع وتدعونا جميعاً للعمل على أن نعيد للمسرح مكانته في المجتمع لما له من دور حيوي وهام في حياة الشعوب.

**كلمات مفتاحية** - المسرح ، نشأته ، دوره ، أهدافه ، المجتمع .

### 1. مقدمة

يقولون، وما أكثر ما يقولون، عند الحديث عن المسرح ودوره في المجتمع، "أعطني خبزاً ومسرحاً أعطيك شعباً عظيماً"، وينسبون هذه المقولة لكتاب كثر، ليس أولهم شكسبير ولا آخرهم ستانسلافسكي أو بريخت! بكل الأحوال، إن هذه المقولة تغيد في إظهار أهمية المسرح في حياة الشعوب. ويمكننا بكل دقة علمية أن نتبعها بمقولة أخرى للفيلسوف والمسرحي الفرنسي فولتير (1694-1778)، الذي قال: "في المسرح وحده تجتمع الأمة ويتكون فكر الشباب وذوقه ... لا مكان فيه لحكمة ضارة ... إنه مدرسة دائمة لتعلم الفضيلة". إن بيننا وبين تاريخ مقولة فولتير ما يزيد على ثلاثة قرون، مع ذلك، نجد فيها توصيفاً مبسطاً للدور الذي يمكن أن يلعبه المسرح في المجتمع. غالباً ما ننظر للمسرح على أنه فن من الفنون غايته المتعة والتسلية. لكن بالتأكيد إن للمسرح أشكال مختلفة وغايات متعددة ومتنوعة تتجاوز المتعة والتسلية، ولكن لا تلغيها، منها ما يهدف لإرسال رسائل اجتماعية وسياسية ودينية واقتصادية بما يخدم قضايا التطور في المجتمع.

في المسرح يلتقي الإنسان بأشباهه من البشر، ويأخذ فرصة لاكتشاف شرطه الإنساني واكتشاف الذات. المسرح مرآة تعكس ملامح المجتمع، ويساهم في تشكيل الوعي والفكر لدى أفراد من خلال رسم شخصيات ونماذج إنسانية تشبههم، وتزويدها بأفكار وأحاسيس وعوالم نفسية تتماهى مع عالمهم وأفكارهم ومشاعرهم، المعلنة منها والمكبوتة، محرراً بذلك الإنسان مما يعطل فيه طاقته الكامنة وقدرته على الخلق والابداع. المسرح يحفز الخيال والتفكير النقدي لدى الجمهور، ويساعد على تشخيص مشاكل المجتمع وتناقضاته واقتراح الحلول لها. المسرح تدريب على النظام واحترام القانون واحترام الآخر.

### 2. نشأة المسرح وارتباطه بثقافة المجتمعات الإنسانية:

لطالما كان المسرح حاضراً وبقوة في حياة الشعوب على مر العصور. فمنذ القرن السادس قبل الميلاد، نشأ المسرح عند الإغريق في أحضان الدين من خلال الاحتفالات والطقوس الدينية التي كانت تقام لتمجيد الإله ديونيسوس عن طريق الإنشاد الذي تؤديه الجوقة وهي تقوم ببعض الحركات التعبيرية

لإعطاء الدروس والمواعظ الدينية والأخلاقية بما يخدم المجتمع في ذلك الوقت.

وفي سياق مماثل، يرجع العديد من الباحثين انطلاقة المسرح الحديث إلى أعمال الكاتب والمخرج المسرحي النرويجي هنريك إبسن (1828-1906)، خصوصاً مسرحيته الشهيرة "بيت الدمية" (1879)، التي جاءت صرخة مدوية وانتقاداً شديداً للمجتمع النرويجي خصوصاً، والأوروبي بشكل عام، بما يخص مكانة المرأة في المجتمع، والدور الذي فرضه عليها النظام البطريركي كمديرة منزل وظيفتها الأساسية والوحيدة السهر على تلبية احتياجات الزوج والعائلة. صحيح أن إبسن لم يكن أول من كتب وعزى النفاق الاجتماعي والبنية الاجتماعية المريضة التي كانت تميز المجتمعات الأوروبية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، إلا أن أعماله والموضوعات التي عالجتها أكسبته، ومجموعة من الكتاب الآخرين، لقب "الأنبياء الاجتماعيين"، وجعلت النوادي الاجتماعية والصالونات الأدبية التي يحضرها أفراد الطبقة الأرستقراطية تطلب من زوارها الامتناع عن ذكر أو مناقشة أعمال إبسن!

لهذا كله نلاحظ أن المسرح حجز لنفسه مكانة مرموقة في حياة المجتمعات الإنسانية المتحضرة اليوم. علاوة على ذلك، بات أصحاب القرار في الدوائر التربوية والإعلامية والاقتصادية والدينية وحتى السياسية يعولون على المسرح للترويج لأفكارهم ومعتقداتهم وحتى منتجاتهم. فالمسرح أثبت أنه قادر على حمل مضامين وعناوين كبرى تؤدي إلى الارتقاء بالمجتمع وتعزيز الهوية والانتماء، وهو الساعي دوماً نحو البحث عن حلول لمشاكل المجتمع، وخصوصاً ما يتعلق بقضاياها الجوهرية، معزياً المجتمع بمحاسنه وسيئاته ومحفزاً إياه بخطاب مؤثر جداً للتغيير، واعتماد العقل والمنطق أساساً لتشكيل الرأي واتخاذ المواقف في القضايا الإشكالية المختلفة.

### III. المسرح اليوم: واقع وطموحات

لقد أصبح من المسلّم به اليوم أن المسرح، مثله مثل أي مؤسسة تربوية أخرى كالمدرسة والجامعة، قادر على أن يرتقي

(الرقص) التي تشرح معاني ما تتشده. ثم تطور المسرح بعدها وأصبح أكثر تنوعاً وشمولية عندما استثمر الشعراء اليونان القصص التي تناقلوها من الملاحم والأساطير وجعلوا منها إطاراً لمعالجة المشاكل الاجتماعية والأخلاقية وحتى السياسية التي يعيشونها. وأصبحت تقام للمسرح مهرجانات ضخمة، كان الحضور فيها إلزامياً ومجانياً لكل شرائح المجتمع بما فيها النساء والعبيد. أما اختيار الكتاب المتبارين في هذه المهرجانات فكان يتم عن طريق أحد أعضاء مجلس الولاية The Archon الذي ينقي ثلاثة شعراء للتنافس على جائزة المهرجان. أما التمويل فكانت الدولة تفرضه على أحد الأثرياء بالتناوب كل عام، وبالقانون، وكان هذا جزءاً من النظام التشريعي لديهم الذي يوظف المال الخاص من أجل خدمة المجتمع. وهكذا يقوم أحد هؤلاء الأغنياء (Choregos) كل عام بتمويل العروض المشاركة وتأمين كافة مستلزماتها من الأدوات وحتى أجور تدريب الكورس (الجوقة)، وكانوا سعداء جداً لفعل ذلك، حيث كان تمويل العروض وسيلة لإعفائهم من دفع الضرائب. أما الدولة فتكفلت بدفع أجور الممثلين. وكان بإمكان الكتاب أن يتصدوا في موضوعاتهم لكل ما يشغل بال الناس من معاناة أو حرب.. الخ. أما الكاتب عند اليونانيين فكانت له مكانة مرموقة، فهو المعلم والمرشد وصاحب الرؤية والمعرفة الذي يكتب المسرحيات من أجل النهوض بمستوى الأخلاق والفضيلة عند أقرانه من الإغريق، ليضمن لهم وللمجتمع الطريق الصحيح نحو الخلاص الروحي. لهذا كانت المسرحيات الفائزة تجول وتعرض في كل مدن اليونان كلها من مبدأ التوعية والتعليم ونشر الفضيلة.

للمفارقة، عندما عاد المسرح للحياة مجدداً، بعد أن حاربتة الكنيسة لعدة قرون، ولد وترعرع داخل مؤسسة الكنيسة ذاتها على شكل مسرح ديني «يشخص» القصص المأخوذة من الإنجيل بحيث تصبح مفهومة لكل الناس، يؤديها القساوسة (الممثلون) وبعض أفراد الرعية، وتعرض داخل الكنيسة. بالتأكيد كان الغرض منها تعليم العقيدة الكاثوليكية لعامة الناس في عصور عمّت فيها الأمية والجهل في أوروبا (العصور الوسطى). مرة أخرى، عاد المسرح ليكون أداة ورافعة أساسية

من ناحية أخرى، يمكن للمسرح أن يساهم في بناء الجسور بين أفراد المجتمع عن طريق تقديم وجهة نظر الآخر. ويحصل هذا عندما تروى الحكايات من منظار شخصية محددة تتبنى منطقاً ورؤى لا تتشارك فيه مع الجمهور أو حتى مناقضة لهم، الأمر الذي يفتح المجال واسعاً أمامهم لمتابعة وتفهم الحكاية نفسها من منظار مختلف.

المسرح ظاهرة فنية ثقافية قادرة على مواكبة التحولات في العالم وتحدياتها. ونحن اليوم في هذا العصر، عصر تكنولوجيا المعلومات ووسائل التواصل الاجتماعي المختلفة التي تعزز الانعزالية والانغلاق، أحوج ما نكون إلى المسرح الذي يتميز عن غيره من الفنون بالحضور الجسدي والذهني لجماعة من البشر في مكان واحد، يتشاركون المكان والتجربة الإنسانية مع مجموعة من الممثلين الموجودين على خشبة ومع بعضهم البعض في الصالة. كما يمكن للمسرح أن يتأقلم مع كل الظروف والبيئات الاجتماعية، وتتسع رقعة جمهوره لتصل إلى كافة شرائح المجتمع وأكثرها فقراً وحاجة للثقافة، وهؤلاء هم غالباً الشريحة التي تترك خارج دائرة اهتمام النشاطات الترفيهية، فهو من الفنون التي لا تتطلب موازنات باهظة التكلفة لأن أدواته الأساسية هي اللغة أو الحوار والجسد.

المسرح اليوم يعاني. غالباً لا ترى الجهات التي تملك التمويل أي أهمية للمسرح مقارنة بالمشاريع الفنية الأخرى (تلفزيون مثلاً). وغالباً ما يرجع رفض إعطاء دور للمسرح في المجتمع إلى مفاهيم خاطئة وناقصة عن المسرح ودوره في المجتمع منها الاحساس بالخطر عند التطرق إلى، أو معالجة مواضيع اجتماعية أو سياسية حساسة.

نعلم جميعاً أن المسرح لا ينتج ثورة، ولكنه ينتج فكراً ومعرفة. والمسرح ليس شكلاً من أشكال التمرد، بل هو شكل من أشكال التقصص والتدقيق في قوانين المجتمع وعاداته، وهو، كما أسلفنا سابقاً، على مر التاريخ وسيلة لإيصال الأفكار وتشجيع الحوار والنقاش.

بسوية ثقافة المجتمع وخلق بيئة ثقافية عامة تحض على احترام الآخر، والرأي الآخر، وترسيخ ثقافة البحث والتمحيص في مختلف قضايا المجتمع استناداً إلى العقل والعلم. والسؤال هنا هو: كيف يمكن للمسرح أن يحقق كل هذه الأهداف؟

يقول الكاتب والناقد المسرحي الانكليزي كينيث تاينن Kenneth Tynan "لا يمكن لأي مسرح أن يزدهر ما لم يكن هناك حبل سري يربط بين ما يحصل على خشبة وما يحدث في العالم". لكي ينجح أي مسرح يجب أن يكون على صلة مباشرة بالجمهور، وعلى علاقة تفاعلية مع المجتمع". واستناداً إلى هذه العلاقة بين العالم الحقيقي (الواقع) خارج الصالة و العالم المتخيل الذي يحاكيه داخلها يمكن للمسرح أن يعرض ويحلل ويشرح ويقترح ويقدم أفكاراً وحلولاً لمشاكل المجتمع، بل ويساعد في خلق البيئة الثقافية القادرة على استشراف المستقبل ودعم التحولات الثقافية والاجتماعية فيه. يمكن للمسرح أن يكون له تأثير الطبيب أو المعالج النفسي أو الاجتماعي، أو حتى إعادة التأهيل، لكل من المشاركين في العرض المسرحي والجمهور وذلك من خلال مشاهدة أو المشاركة في عرض مسرحي يتصل مباشرة بذاكرة شخص ما أو بحياته الشخصية، مما يمكن الأشخاص من إعادة رؤية ذاكرتهم ومشاكلهم، وإعادة كتابتها وصولاً لإعادة فهمها وإنتاج معانٍ جديدة لها من خلال العلاقة المتبادلة بين التجربة الدرامية والحياة الشخصية. إن مجرد مشاهدة قصة تعالج مشاكل مشابهة للمشاكل التي يتشارك فيها أفراد الجمهور تتجسد أمامهم تساعد على فهم مشكلاتهم وظروفهم بطريقة مختلفة. يشعر الكثير من الناس أنه في التحدث ورواية قصص معاناتهم الشخصية ومشاكلهم لشخص آخر (صديق أو قريب أو زميل) يمكن أن يجترح لهم حلاً أو علاجاً لها، أو على الأقل، تخفيفاً لمعاناتهم. وهذا أيضاً ليس أمراً جديداً على المسرح. إن أهم مسرح يوناني بني ليمجد الإله ديونيسوس والذي يدعى Epidaurus كان يحتوي على معبد لإله الدواء أو الجانب الشفائي للعلوم الطبية ويدعى Asklepios وذلك نظراً لاعتقادهم بأن للمسرح تأثير مفيد جداً على الصحة الجسدية والعقلية للجمهور، وكان ينظر إليه، أي المسرح، على أنه مركز تأهيل.

Theatre is a باختصار، المسرح بروفة حياة: rehearsal for life.

#### المراجع:

- [1]. Peter Wilson, (18 September 2003). The Athenian Institution of the Khoregia: The Chorus, the City, and the Stage. Cambridge university Press. [Online]. Available: <https://orca.cardiff.ac.uk/Lambert2002.pdf>
- [2]. Pearly Wong, Theatre for Social Change and Development. [Online] Available: <https://www.academia.edu>.

#### منشورات المؤلف:

- [1]. Shaheen, Y. (2016). A joint paper on Apocalyptic Images and Allusions in Oscar Wilde's *Salome* and Anton Chekhov's *The Sea Gull*. *Tishreen University Journal for Studies and Scientific Research, Humanities Series*, 2. Vol.38.
- [2]. Shaheen, Y. (2006). Looking at Shakespeare Theatrically with Reference to the development of the Role of the Clown Character. *Tishreen University Journal for Studies and Scientific Research, Humanities Series*, 1. Vol.28.
- [3]. Shaheen, Y. (1996). The Production of Meaning in Shakespeare with Reference to The Merchant of Venice. *Studies of Theatre Production, University of Exeter*, 14.